سُورَةُ الفَتْحِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ [الفتح: ٦]

القراءات: «دائرة السوء» قرأ ابن كثير وأبو عمرو السوء بضم السين وهو الضرر والباقون بفتحها.

التوجيه: قال ابن عاشور: والسوء بفتح السين في قوله «ظن السوء» في قراءة جميع العشرة وأما في قولهم «عليهم دائرة السوء» فهو في قراءة الجمهور بالفتح أيضًا. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحده بضم السين. والمفتوح والمضموم مترادفان في أصل اللغة ومعناهما المكروه ضد السرور فهما لغتان مثل: الكَرْه والكُرْه، والضَّعف والضُّعف، والضُّر الضَّر، والبأس والبؤس. هذا عن الكسائي وتبعه الزمخشري وبينه الجوهري بأن المفتوح مصدر والمضموم اسم مصدر إلا أن الاستعمال غلَّب المفتوح في أن يقع وصفًا لمذموم مضافًا إليه موصوفه كما وقع في هذه الآية وفي قوله ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ في سورة براءة وغلَّب المضموم في معنى الشيء الذي هو بذاته شر. فإضافة الظن إلى السوء من إضافة الموصوف إلى الصفة.

والمراد: ظنهم بالله أنّه لم يعد الرسول ﷺ بالفتح ولا أمره بالخروج إلى العمرة ولا يُقدِّر للرسول ﷺ النصر لقلة أتباعه وعزة أعدائه فهذا ظن سوء بالرسول ﷺ وهذا المناسب لقراءته بالفتح. وأما «دائرة السوء» في قراءة الجمهور فهي الدائرة التي تسوء أولئك الظانين بقرينة قوله «عليهم» ولا التفات إلى كونها محمودة عند المؤمنين إذ ليس المقام لبيان ذلك. والإضافة مثل إضافة «ظن السوء» وأما في قراءة ابن كثير وأبي عمرو فإضافة «دائرة» المضموم من إضافة الأسماء أي الدائرة المختصة بالسوء والملازمة له لا من إضافة الموصوف، وليس في قراءتهما خصوصية زائدة على قراءة الجمهور

ولكنها جمعت بين الاستعمالين ففتح السوء الأول متعين وضم الثاني جائز وليس براجح والاختلاف اختلاف في الرواية.

وقال ابن جرير: واختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء الكوفة «دَائِرَةُ السَّوْءِ» بفتح السين وقرأ بعض قراء البصرة «دائِرَةُ السُّوءِ» بضم السين وكان الفراء يقول: الفتح أفشى في السين قال: وقلما تقول العرب دائرة السُّوء بضم السين، والفتح في السين أعجب إليّ من الضم لأن العرب تقول: هو رجل سَوْء بفتح السين ولا تقول: هو رجل سُوء. **قلتُ:** هما قراءتان متواترتان ولغتان عند العرب كما قدمنا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح: ٩]

القراءات: «لتؤمنوا – تعزروه – توقروه– تسبحوه» قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيب في الأفعال الأربعة والباقون بتاء الخطاب في الجميع.

التوجيه: وجه قراءة الياء أنّ المراد منه الإيمان بالرسول ﷺ وتعزيزه وتوقيره وتسبيح الله هم جميع الخلق ويدخل فيهم الكفار، فناسب مجيء هذه الأفعال بالياء إعراضًا عن مخاطبة الكفار لكفرهم وشركهم، وأمّا قراءة التاء فوجه مخاطبة الكفار بذلك التوبيخ واللوم، ووجه مخاطبة المؤمنين بذلك مزيد التنبيه على لزوم ذلك، أو التنبيه على لزوم مزيد الاجتهاد في ذلك، فإنّ مراتب الإيمان، ومنازل الإحسان تتفاوت تفاوتًا بعيدًا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠]

القراءات: «عليه الله» قرأ حفص بضم هاء الضمير وصلًا ويلزم منه تفخيم لفظ الجلالة. وقرأ الباقون بكسر الهاء ويلزم منه ترقيق لفظ الجلالة.

التوجيه: قال الألوسي: وقرأ الجمهور: «عليْهِ» بكسر الهاء كما هو الشائع وضمها حفص هنا، قيل: وجه الضم أنها هاء (هو وهي) مضمومة فاستصحب ذلك كما في (لهُ) و(ضربهُ) ووجه الكسر رعاية الياء وكذا في (إليهِ وفِيه) وكذا فيما إذا كان قبلها كسرة نحو (بِهِ)، ومررت (بغلامِهِ) لثقل الانتقال من الكسر إلى الضم وحسن الضم في الآية للتوصل به إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام وأيضًا إبقاء ما كان على ما كان ملائم للوفاء بالعهد وإبقائه وعدم نقضه وقد سألت كثيرًا من الأجلة وأنا قريب عهد بفتح فمي للتكلم عن وجه هذا الضم هنا فلم أجب بما يسكن إليه قلبي ثم ظفرت بما سمعت والله تعالى الهادي إلى ما هو خير منه.

قلتُ: قوله «للتوصل به إلى تفخيم لفظ الجلالة» فيه نظر، إذ ليس في قوله «بسم الله الرحمن الرحيم» مثلًا بكسر الميم ما يناقض تفخيم لفظ الجلالة، فالوجه الثاني الذي ذكره أحسن، ويصح أن يقال: حركة الضم فيها ثقل بخلاف حركة الكسر، ففي القراءتين معًا الدلالة على لزوم وعظيم ثواب من أوفى بما عاهد الله عليه، سواءٌ عظم ما عاهد الله عليه «كما تفيده قراءة الضم» أو قلّ «كما تفيده قراءة الكسر».

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفَتْح: ١٠]

القراءات: قرأ: نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر وروح «فسنؤتيه» وقرأ الباقون: «فسيؤتيه».

التوجيه: قراءة «فسنؤتيه» بالنون تفيد عظيم الأجر والمثوبة التي يمنّ بها الله على المؤمنين، وقراءة الياء تفيد تعيين المؤتي لذلك الثواب، وهو الله عزّ وجلّ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ [الفتح: ١١]

القراءات: «ضرًا» قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بضم الضاد والباقون بفتحها.

التوجيه: قال ابن عاشور: وقرأ الجمهور «ضرًا» بفتح الضاد، وقرأه حمزة والكسائي بضمها وهما بمعنى. وهو مصدر فيجوز أن يكون هنا مرادًا به معنى المصدر. أي إن أراد أن يضركم أو ينفعكم. ويجوز أن يكون بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق، أي إن أراد ما يضركم وما ينفعكم.

وقال ابن جرير: واختلفت القراء في قراءة قوله ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ فقرأته قراء المدينة والبصرة وبعض قراء الكوفة «ضَرًّا» بفتح الضاد بمعنى: الضّر الذي هو خلاف النفع وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين «ضُرًّا» بضم الضاد بمعنى البؤس والسَّقم.

وأعجب القراءتين إليّ الفتح في الضاد في هذا الموضع لقوله ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ فمعلوم أن خلاف النفع الضر وإن كانت الأخرى صحيحًا معناها.

قلتُ: قد نقلنا عن ابن القيم في (كنوز قرآنية – الجزء الثالث) أنّ الضمة أقوى الحركات والفتح أخف منها، فالآية على القراءتين تفيد أنّ العباد لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم دفع عظيم الضر – كما تفيده قراءة الضم – ولا قليلة – كما تفيده قراءة الفتح – إن أراد الله بهم ذلك الضر.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح: ١٥]

القراءات: «كلام الله»: قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر «كلم» بكسر اللام بلا ألف على أنّها جمع وقرأ الباقون «كلام» بفتح اللام وألف بعدها.

التوجيه: قرئ «كلام» جمع كلمة، وقرئ «كلم» اسم جمع كلمة، ومؤداهما واحد.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٧]

القراءات: «يدخله – يعذبه» قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بنون العظمة فيهما على الالتفات والباقون بالياء فيهما.

التوجيه: قراءة النون «ندخله، نعذبه» تفيد عظيم ثواب الله وعظيم عذابه، فثوابه وعذابه يليقان بعظمته وقدرته سبحانه، وقرئ بالياء على تعيين الفاعل وذلك بعود الضمير إلى الله عز وجلّ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٢٤]

القراءات: «تعملون» قرأ أبو عمرو بياء الغيب والباقون بتاء الخطاب.

التوجيه: قراءة التاء خطابٌ للمؤمنين على سبيل التبشير لهم بأنّ الله يبصر أعمالهم وبذلهم في سبيل دين الله وسيجزيهم على ذلك أعظم الثواب، كما يفيد التحذير لهم من التجاوز لحدود الله لئلا يتعرضوا لعقابه سبحانه، وقراءة الياء على سبيل الإخبار عن الكفار الذين صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، ولم يخاطبهم لكفرهم وعدم استحقاقهم لخطاب الله لهم، ويحتمل أن يكون الخطاب في قراءة التاء شاملًا كذلك للكفار على سبيل التهديد لهم، فهو خطاب سخطٍ وغضبٍ لا خطاب رحمةٍ وإحسان.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الفتح: ٢٥]

القراءات: قرأ أبو جعفر وحمزة وقفًا وله أيضًا التسهيل «أن تَطَوْهم» وقرأ الباقون «أن تطئوهم» ولورش ثلاثة البدل.

المعنى: قال ابن عاشور: الوطء هو الدوس بالرجل، ويستعار للإبادة والإهلاك.

التوجيه: قرئ «تَطَوْهم»، «تطئوهم» بالإبدال والتسهيل وبالهمز وكلها أوجه مشهورة عند العرب، ولعلّ وجه قراءتي التسهيل والإبدال هاهنا بيان أنّ أيّ إيذاء من الصحابة لمسلمي مكة الذين لا يعلمونهم – ولو كان يسيرًا – فإنّ فيه معرّةً لهم، كما أنّ الإيذاء الشديد – كما تدل عليه قراءة الهمز – فيه أيضًا معرةٌ لهم، والله أعلم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩]

القراءات: «شطأه»: قرأ: ابن كثير وابن ذكوان بفتح الطاء والباقون بإسكانها.

«فآزره» قرأ ابن ذكوان «فأزره» وقرأ الباقون «فآزره»، «سوقه» قرأ قنبل «سُؤقه»، و«سُئُوقه» وقرأ الباقون «سُوقه».

المعنى: قال القرطبي: «شطأه» يعني وفراخه وأولاده، قاله ابن زيد وغيره، وقال مقاتل: هو نبت واحد، فإذا خرج ما بعده فقد شطأه، وقال الجوهري: شطْءُ الزرع والنبات فراخه والجمع أشطاء، وقال الأخفش: أخرج شطأه أي طرفه، وحكاه الثعلبي عن

الكسائي، وقال الجوهري: أشطأ الزرعُ خرج شطؤه. فآزره: قال القرطبي: أي قوّى الشطءُ الزرع، وقيل بالعكس: أي قوّى الزرعُ الشطء.

قلتُ: اختار ابن عاشور وغيره أنّ المعنى: قوّى الشطء الزرع الأصل، وهذا هو الظاهر.

التوجيه: قال القرطبي: قرئ «شطأه» بفتح الطاء وبإسكانها، وهما لغتان فيها.

وقال الشنقيطي: وقوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي فراخه فنبت في جوانبه. وقوله «فئازره» على قراءة الجمهور من المؤازرة. بمعنى المعاونة والتقوية وقال بعض العلماء: «فئازره» أي ساواه في الطول وبكل واحد من المعنيين فسر قول امرئ القيس:

بمحنية قد آزر الصال نبتها مجر جيوش غانمين وضيب

وأما على قراءة ابن ذكوان «فأزره» بلا ألف، فالمعنى شد أزره أي قواه ومنه قوله تعالى عن موسى. ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ [طه: ٢٩ – ٣١].

وقال ابن عاشور: وقراءة الجميع «على سوقه» بالواو بعد الضمة. وقال ابن عطية: قرأ ابن كثير «سُؤقه» بالهمزة (أي همزة ساكنة بعد السين المضمومة) وهي لغة ضعيفة يهمزون الواو التي قبلها ضمة ومنه قول الشاعر:

لحب المؤْقدان إلى مُؤْسى .....

وتنسب لقنبل عن ابن كثير ولم يذكرها المفسرون ولم يذكرها في حرز الأماني وذكرها النوري في كتاب غيث النفع وكلامه غير واضح في صحة نسبة هذه القراءة إلى قنبل.

قلتُ: في كلام ابن عاشور هذا تخليطٌ كثير، فإنّ لقنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجهين: «سُؤْقه» بإسكان الواو، وهذا الوجه ليس الكلام فيه، وأمّا الوجه الآخر «سُؤُقه» بضم الواو مع همزها، وفيه الكلام، وقوله «لم يذكرها في حرز الأماني» يقصد الشاطبي، وهذا خطأٌ آخر فإنّ الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يذكرها في الكلام على سورة الفتح بل في سورة سبأ، فقال:

مــع الــســوق ســاقــيـهــا وسُــــوقٍ اهــمــزوا زكـــى
ووجـــــهُ بــهــمــزٍ بــعــد الــــــواو وكِّـــــلا

وقوله «زكى» أي: قنبل، وأمّا قوله عن النوري «كلامه غير واضحٍ في صحة نسبة هذه القراءة إلى قنبل» فلا يصح أيضًا، فقد قال النوري: وهذا الوجه – أي «سُؤُقه» بضم الواو – من زيادته على أصله وهو غريب حتى ادّعى بعضهم أنّه ممّا انفرد به وليس كذلك كما قال المحقق وآخرون. اهـ، وقول النوري «وليس كذلك» فيه الرد على من لم يثبت هذه القراءة لقنبل، وكونها مخالفةً لأصول قنبل لا يقدح فيها، فإنّ مجيء القراءة بالسند الصحيح الموافق لوجهٍ من وجوه العربية مع موافقتها الرسم كافٍ، ولا يشترط أن تكون واردةً باللغة الأفصح.

❁❁❁

Obeikandl.com